اللغة العربية ونقادنا الكبار !

بقلم محمد عيد

اعد الاستاذ « ابراهيم الصيرفي » ندوة من البرنامج الثاني لاذاعة القاهرة ، وكان المنتقدون هم عبد القادر القط ورشاد رشدي وصلاح عبد الصبور ، ثم ارسل الاستاذ الصيرفي ملخص الندوة الى مجلة (الاداب) حيث نشرتها في العدد الخامس (مايو سنة ١٩٦٤) بعنوان (ازمة الشعر العربي المعاصر) .

ولقد دهشت حقا بعد ان قرأت ما جاء في هذه الندوة العجيبة حيث بعثر السادة الاساتذة اراءهم بغير حساب ، ونصبوا من انفسهم — دون تفويض من احد — قوامين على الشعر الحر والشعر المقفى ، والثقافة المعاصرة والتراث القديم ، وعلى الادب وعلى اللغة ايضا ، واراؤهم كلها في هذه الندوة تتصف بالتكرار الذي سمعناه منهم وعنهم عشرات المرات من قبل،كما تتصف ايضا بالخلط والاضطراب. اذ تحدثوا في هذه الامور السابقة كلها وحشروا في حديثهم كل ما عن لهم قوله عن الادب واللغة والثقافة دون تثبت ، ودون سند علمي تستند اليه تلك الاراء السطحية الفجة ، اللهم الا انها وردت من الثلاثة الكبار ولا شيء غير ذلك .

ولا اود ان اخوض على طريقتهم — في نقاش يتناول كل هذه الامور ، فليست لدي القدرة ولا الاستعداد لمواجهة نفسي او غيري بمثل هذه الامشاج الملفقة في ندوة تذاع على الناس او مجلة يقرؤها المثقفون العرب كمجلة (الاداب) ولكني فقط اخص حديثي معهم هذه المرة بما اعتقد — بتواضع — ان لدي القدرة للحديث عنه ، وهو ما ذكروه من اراء سطحية عن : اللغة العربية .

اول قضية ذكرت عن اللغة في تلك الندوة هي « ان اللغة ربما كانت عائقا بالنسبة لرواج الشعر كفن من الفنون الاولى (١) » .

واذا صرفنا النظر عن « الفنون الاولى » و « الفنون الاخرى» اذ ليس في الفنون « اولى » و « اخرى » فان هذه القضية تبدو غريبة حقا من الناحيتين الفنية واللغوية.

ان من المعروف لدى اقل الدارسين « ان الشعر فن من الفنون وسيلته التعبيرية هي اللغة » ولا يمكن ان يتصور شعر دون لغة تعبر عنه على حسب قدرة الشاعر وتمكنه من التخيل والتصوير والايحاء بالالفاظ من جهة ، وعلى حسب تمكنه من الدلالات العرفية للغة من جهة اخرى . فالشاعر المتمكن هو الذي يستطيع ان يستخدم مدلولات الالفاظ والتراكيب بطريقه ترضي الذوق والفن اولا عن طريق الايحاء والجرس ، وذلك بتجاوزه مرحلة الدلالة العرفية للكلمات التي تعتمد على دقة المعنى وفهمه. وبعبارة قصيرة : ان الشاعر الحق هو الذي تتهيأ لديه القدرة على التعبير معتمدا على الرمز في مدلوليه الفني واللغوي(٢) .

واذا كان الامر كذلك لدى من يعتد بهم من الباحثين والعلماء ، فأي خطأ فادح يلزم الدكتور رشاد حين يذيع على الناس مثل هذه الفكره الغريبة التي لا سند لها من الفن او اللغة ؟!

وكيف يمكن ان تكون اللغة عائقا لرواج الشعر وهي اداته ووسيلته !! ربما كان علم ذلك عند السيد الناقد الذي ذكر الفكرة فقط ، ولم يوضحها بعد ذلك ، وحسنا فعل !! لانها واضحة الخطأ .

اما الفكرة الثانية التي اثارها السادة النقاد عن اللغة العربية فهي عن « الطريقة الخاطئة التي يسير عليها تعليمها» وقد هاجموا تعليمها بعنف معتمدين في هذا الهجوم على اساس فني هو : ان تعليم اللغة العربية — بطريقته الحالية — لا يثير الاحساس بالجمال ، ولا يحقق رواج الادب شعرا او نثرا ، ومتدرجين من ذلك الى ارجاع هذا العيب الفني الى عيب لغوي وهو صعوبة النطق باللغة معربة والخوف من اللحن فيها ، يقول الدكتور القط « وليس بين الكتب كلها قصة تثير خيال الولد ، وتعلمه جمال الالفاظ ، هذا من ناحية المرحلة الاولية ، اما من ناحية المراحل التالية فنجد نماذج اغلبها قديمة » ويقول الدكتور رشاد في حماس — يدعى ان لديه القدرة عليه — « يجب اعادة النظر في تدريس اللغة العربية كلية لا من اجل الشعر فقط ، بل من اجل الادب من اجل الحياة ، ومن اجل روح هذا الشعب » ويضيف صلاح عبد الصبور « ان كتب التعليم قد نجحت في بث البغضاء للغة في نفوس طلبة المدارس ، ولكل ما يتصل باللغة ، وان أي متلق عادي باستطاعته ان يستقبل الشعر ، وما يحول دونه وذلك كراهيته لكل ما هو مشكول، ويخشى ان يلحن فيه » (٣) .

(١) ازمة الشعر المعاصر (مجلة الاداب) مايو سنة ١٩٦٤ ص : ٥.

(٢) انظر : اللغة بين المعيارية والوصفية (تمام حسان) ص : ١٠٣

(٣) ازمة الشعر المعاصر (مجلة الاداب) مايو سنة ١٩٦٤ ص:٦،٧.

وسأوضح علميا نقطتين لغويتين يضعان الحل الموضوعي لهذه الاراء المتحمسة دون ما داع للحماس والانفعال ، وهما :

١ ـ الهدف من تعليم اللغة ـ اية لغة ـ بالنسبة للجماعة التي تتكلمها .

٢ ـ ضرورة الصحة اللغوية والشكل في لغتنا العربية .

ان وظيفة اللغة الاساسية وظيفة اجتماعية ، هي الربط بين الجماعات المختلفه ثقافيا وشعوريا . ويختلف المستوى اللغوي في كل جماعة من الجماعات باختلاف الجماعة اللغويه نفسها والعرف السائد بينها عن اللغة اصواتا والفاظا وتراكيب . وما لهذا العرف من قوة قاهرة يستمدها من الجماعة في اخضاع الجميع لقهره الغلاب .

والشعوب العربية جماعة ضخمة اصطلحت على ان تكون لغتها هي اللغة المشتركة الفصيحة فيها يتخاطبون عن طريق وسائل الاعلام المتعددة ، كما ان بها يدونون انتاجهم الفكري وجهودهم العلمية ، وكذلك يستخدمونها في التعبير عن مظاهر وجداناتهم من قصة وشعر ومسرحية وغيرها من الفنون الادبية (٤) .

واذا فهمنا وظيفة اللغة بهذا المعنى الاجتماعي العام ، فان هذا الحماس الحاد في الانحياز الى جانب تعلم الشعر وحده وقياس تعليم اللغة بمقياسه فقط لا يتفق وهذه الفكرة السابقة ، فاللغة تعلم للشعر ولغير الشعر ، او بعبارة اخرى : يجب لاستيعاب وظيفة اللغة ان تعلم في مستوى موضوعي قد يكون جافا ولكنه ضروري ، كما يجب ايضا ان يعني بها في مجالها الفني الذي يريد السادة النقاد ان توجه اليه كل الجهود ، وهو جزء فقط من مهمة اللغة ، وبالتالي من مهمة تعليمها ، واذا كانت هناك بعض الاخطاء في طرق تعليمها ، فانه كان من اللازم ان يحددها السادة النقاد في مجالها ، ويقدمون لها حلولا عملية معتمدة على اسس تربوية ولغوية يعتد بها ، بدلا من هذا الحماس والصياح الذي لا يجدي شيئا ، ويسيء اساءة بالغة الى التربية واللغة والفن على السواء .

اما ضرورة الصحة اللغوية (الخلو من اللحن) والشكل (الاعراب) فقد ارجع اليهما صلاح عبد الصبور مسؤولية بغض اللغة وبغض الشعر وتنغيص الناس عند قراءته .

والمعروف ـ يا سيدي الشاعر ـ ان اللغة تختلف مستوياتها بين « اللغة المفهمة » و « اللغة الصحيحة » و « اللغة البليغة » والاولى اداة للافهام في ادنى درجاته والمستويان الاخيران اعلى من المستوى السابق ، والوصف الاول يمكن ان نجد تطبيقه واضحا في العاميات Dialects اما الوصف الثاني فهو لازم لكل ناطق بلسان عربي سليم ، والاخير ضرورة للغة في مستواها الفني سواء أكانت شعرا او نثرا « فالتعبير الصحيح هو التعبير الذي يصل الى الحد الادنى الذي يتطلبه العرف اللغوي ، اما التعبير البليغ فيتجاوز هذا الحد الادنى الى افق اخر (٥) »

فاللحن اذن يتناقض تماما مع ادنى مستوى مطلوب للتعبير اللغوي السليم ـ وهذا ما قرره اللغويون الاجانب والعرب ايضا ـ فكيف اذن يسوغه السيد الشاعر ويرى ان الخوف منه يؤدي الى مجموعات الكراهية التي ذكرها، ونحن لا نتطلب منه شاعرا مجرد التوقي من اللحن ، بل نتطلب منه فوق ذلك مستوى البلاغة .

اما الشكل الذي هو مظهر اعراب الكلمات ونسبة بغض اللغة اليه ، فليس فكرة جديدة تهاجم منها اللغة اليوم ، فلقد سبق السيد الشاعر الى ذلك مرات كثيرة من قبل ، ليس هنا مجال ذكرها .

وباختصار شديد سنتبين فكرة الشكل اللغوي من وجهة نظر الدراسات اللغوية الحديثة Linguistics فمن القواعد اللغوية المشهورة الان « ان فهم اللغة يبنى على الشكل والوظيفة » فاللغة ـ اية لغة ـ منظمة من الاجهزة وكل جهاز منها يؤدي دوره حسب النظم العرفية لتلك اللغة ، وابواب النحو ما هي الا تعبير عن الوظائف النحوية التي تنتظمها لغة من اللغات ، ففي العربية مثلا كثير من الوظائف كالفاعل والمفعول وغيرهما ، وكل وظيفة من هذه الوظائف تتخذ لها طريقة شكلية للتعبير عنها ، وتختلف تلك الطرق الشكلية حسب عرف اللغة واصطلاحاتها فبعض اللغات تكون وسيلتها الشكلية للتعبير عن وظائفها هي الترتيب ، وذلك كاللغة الفرنسية والانجليزية وبعض اللغات الاخرى كاللاتينية والعربية يكون الشكل فيها هو الاعراب وليس للترتيب فيها قيمة كبيرة ، وكل ذلك يرجع الى العرف الاجتماعي للغة حيث يفرض شكلا خاصا للتعبير عن تلك الوظائف (٦) .

فاللغة العربية قد ارتضى عرفها القديم والحديث ان تعبر عن وظائفها بالاعراب وهكذا جاء انتاجها الفني والعلمي والديني ، فكيف اذن يمكن ان نقبل من السيد الشاعر مجموعات الكراهية التي حشدها ضد الشكل والاعراب ، وهو امر ترفضه الدراسات اللغوية الحديثة ، والعرف العربي الاجتماعي ،والثقافة العربية في ماضيها وحاضرها.

اما النقطة الثالثة التي اثارها السادة النقاد عن اللغة فتتلخص في « تشخيص داء اللغة العربية وتعليمها وتقديم العلاج عن طريق ذلك التشخيص » .

---

(٤) انظر : اللغة في المجتمع (لويس) ترجمة تمام حسان ، اللغة والمجتمع دكتور محمود السعران .

(٥) اللغة بين الفرد والمجتمع (اوتو جسبرسن) ترجمة عبدالرحمن ايوب ص : ١٤٢ وما بعدها .

(٦) موقف ابن مضاء من مناهج النحاة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة (محمد عيد) ص : ٣٥٤ وما بعدها .

يتلخص ذلك في ان اللغة العربية وتعليمها محافظة وسلفيه ، فلم تتطور ولم يتطور تعليمها منذ عهد بعيد ، وعدم التطور فيها يعود الى ارتباطها وارتباط دراستها بالدين يقول الاستاذ عبد الصبور « ذلك انه قد حدث في تاريخنا حدث خاص بنا وهو مسألة ارتباط اللغة بالعقيدة، واللغة لم ترتبط بالعقيدة عن طريق العقيدة نفسها ، ولكن الذين اشتغلوا باللغة كان معظمهم او كلهم يشتغلون بالعقيدة، فاتخذوا النحو واللغة وسيله لحسن فهم العقيدة ، لان القرآن كتاب بلاغي ، ومن هنا حدث عندنا الارتباط بين الادب وتفسير الدين » ويؤيده الدكتور القط بقوله : « وقد ظل تعلم الشعر واللغة العربية عندنا كما هو » ويصفق الدكتور رشاد مسنبشرا « ويرى انه لا بد من اعادة النظر في تعليم اللغة العربية (٧) » .

فداء اللغة العربية اذن ـ في نظر السادة النقاد ـ انها لم تتطور في ذاتها ولا في تعليمها وبقيت كما ورثناها من اسلافنا السابقين ، لانها ارتبطت بالعقيدة وبالدين ، وترتب على ذلك الجناية على الادب ، والعلاج اذن هو في الفصل بين اللغة والدين ..

وسأوضح رأيي بعطيين هما :

١ ـ ارتباط اللغة بالدين ومدى تأثير ذلك فيها .

٢ ـ التطور اللغوي والعوامل التي يخضع لها .

وبتوضيح هاتين النقطتين يتبين لنا نصيب السادة الاساتذة من التوفيق فيما شخصوه واقترحوه .

ان اللغة العربية قد ارتبطت بالدين ما في ذلك شك، فالقرآن قد نزل بها ، وقرر ذلك في اكثر من آية (انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) و (قرآنا عربيا غير ذي عوج) وغيرهما من الآيات التي تقرر ذلك .

وقد كان ذلك حقا ذا تأثير عميق في اللغة وابحاثها ، اذ كان دافعا لكثير من الجهود المخلصة الطيبة التي خدمت اللغة والدين معا ... والى هنا نتفق مع السادة النقاد .

اما الذي نفترق عنهم فيه فهو ان ارتباط اللغة بالدين كان عاملا من عوامل الجمود والتوقف فان هذه النظرة عدوانية قاصرة ، لان القرآن بخاصة والدين بعامة كانا من العوامل المحصنة للغة مما تتعرض له اللغات من التفتت والتبدد ، فقد كان القرآن أحد العوامل الهامة في المحافظة على قوة اللغة العربية وصفائها في ذلك المدى الزمني الطويل .

فالدين بذلك عامل يستحق الشكر لا اللوم ، لانه ادى مهمة معنوية خطيرة للغة طوال اكثر من الف سنة ـ احصاها السادة النقاد في ندوتهم ـ اما الجمود والتوقف فلا ارى لهما اثرا الا في خيال العاجزين الذين انقطعت بهم ثقافتهم عن اجادة اللغة فراحوا يتهمونها بالعجز والجمود ، وهذا ما لم يحدث للغة اطلاقا لا من الدين ولا من غير الدين ، اذ نزل القرآن باللغة العربية بألفاظ وتراكيب واساليب بقى لها الى اليوم قوتها وصفاؤها بين الناطقين العرب .

والخلاصه انه يجب ان نضع في اعتبارنا هذه الحقائق: ان القرآن نزل باللغة العربية ولم يوجدها . فهو احد آثارها الفنية الراقية ، شأنه شأن غيره من آثارها العظيمة ، وانه احد العوامل التي حافظت عليها من الاندماج في اللهجات ولغات القبائل ، وقد ادى دوره في ذلك خير اداء ، ولا شأن لذلك بفكرة الجمود والتطور التي سأعرض الرأي اللغوي فيها الان .

ان التطور ضرورة حتمية في الظواهر عامة ، وبخاصة الظواهر الاجتماعية التي من اهمها اللغة ، فاللغة كما يقول « فندريس » : تتأثر باستعمالاتنا التي تلونها ظروف المجتمع ، وهذه دائبه العمل على تغيير النطق ، ومن غير المعقول أن يتوقف هذا التعديل والتبديل الدائم وتبعا لذلك لا يتوقف تطور اللغة ، فلا يمكن لاحد ـ مهما كان ـ ان يصف اللغة بالجمود ، لان طبيعتها لا تقبل التجميد والتحديد . باعتبارها احدى الظواهر الاجتماعية التي تتطور باستمرار ، وعمل الباحث هو وصف هذه الحركة المستمرة للغة فقط ويمكن تقريب هذه الفكرة للفهم فيما لو وازنا مثلا بين لغة العصر الجاهلي واللغة المشتركة التي ننطقها الان في الالفاظ والتراكيب والاساليب ، فلا شك ان بينهما فرقا كبيرا يبين قوة التطور ومداه (٨) الذي نتبعه الان في المعاهد المتخصصة دراسات علمية متطورة واصيلة ..

ومن ذلك يتضح امامنا الحقائق التالية :

اولا : انه لم يحدث تجمد للغة ولا سلفية في دراستها . لان هذا ينافي طبيعة اللغات ومنها اللغة العربية

ثانيا : ان القرآن كان من عوامل قوة اللغة وصفائها وصيانتها من الانقسام والتفتت ولا شأن له بما وصم به السادة النقاد اللغة من الجمود والتوقف .

ثالثا : ان اللغة العربية بخير ، وتقوم بدورها العظيم الان كما قامت به من قبل في اداء وظيفتها الاجتماعية لخدمة الثقافة والوجدان .

وبعد :

فاني رجاء اتقدم به لاساتذة الجديد والتجديد ان يتوقفوا عند حدود ما يعلمون ، والا يخوضوا فيما لا يعلمون ، خصوصا وقد وضعتهم الظروف في مكان القيادة والريادة لجيل عربي ناشيء ، يقرأ لهم ، ويسمع منهم وعنهم « ورحم الله امرءا عرف قدر نفسه » .

القاهرة — محمد عيد

(٧) الاداب ـ العدد السابق ص : ٧ ـ ٨ .

(٨) شرحت هذه الفكرة باسهاب في رسالتي للماجستير بعنوان : موقف ابن مضاء من مناهج النحاة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة ص : ٢٥٩ وما بعدها .